

قراءة تحليلية لنظرية الحتمية التكنولوجية والحتمية القيمية.

-بين مارشال ماكلوهان وعبد الرحمن عزي-

أ. ياسين قرناني

جامعة سطيف -2- الجزائر

تمهيد:

تعد نظرية الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان من أهم النظريات الاتصالية في العصر الحديث وان كل الدراسات الغربية وحتى العربية انطلقت من أفكار ماكلوهان مع ما انجرت عنه من مخاطر في سحب أفكارها وافترضاها على المجتمعات العربية دونما مراعاة للاختلاف في الانتماء الحضاري من جهة ثم تقديس هذه النظرية وغلق باب الاجتهاد والتتظير للظاهرة الاتصالية والإعلامية في البلاد العربية الإسلامية وكان بطون الأمهات أصابها العقم ولم تلد من ينظر للظاهرة الاتصالية في البلاد العربية، لكن مع مطلع الثمانينات ظهرت معالم نظرية جديدة في الإعلام في البلاد العربية سميت بنظرية الحتمية القيمية في الإعلام لصاحبها عزي عبد الرحمن مستمدة أفكارها من التراث الديني والفكري والثقافي في البيئة العربية الإسلامية .

وسيتم في هذه المداخلة المقارنة والتحليل بين النظريتين من حيث:

1- المنطلقات الفكرية - (الفكر والعقل الغربي للحتمية التكنولوجية- والفكر العربي الإسلامي للحتمية القيمية).

2- المتغير الرئيس في النظريتين- الرسالة هي الوسيلة بالنسبة للحتمية التكنولوجية والرسالة هي القيمة بالنسبة للحتمية القيمية.

3- ماذا قدمت نظرية الحتمية التكنولوجية للثقافة الإنسانية وماذا قدمت الحتمية القيمية للثقافة الإنسانية.

4- أهم الانتقادات الموجهة للحتمية التكنولوجية والحتمية القيمية.

-الملاحظ على النظريتين أن كلاهما تمت تسميتهما بمفهوم الحتمية لذلك لا بد أن نبين معنى الحتمية كمنطلق لأهم الأفكار الواردة في النظريتين ثم نذكر التباين بين الحتميتين في المضمون والأفكار التي تنطوي في كلا النظريتين.

1- الحتمية: déterminisme:

تعني عملية اعتماد متغير واحد من دون المتغيرات الأخرى في تفسير الظواهر، كأن يفسر تطور المجتمع على أساس الصناعة فقط، فتكون هذه حتمية تكنولوجية، أو يفسر على أساس الحركة الاجتماعية فتكون هذه حتمية اجتماعية وهكذا و تخص الحتمية الإعلامية media déterminisme على اعتبار أن تكنولوجيا الاتصال هي المتغير الأساسي في تفسير آليات

التطور الاجتماعي، فقد اعتبر ماكلوهان أن اكتشاف الكتابة 3500ق.م يعتبر ثورة الاتصال الأولى، إذ وجدت هذه الثورة اللغة المكتوبة و سمحت بالتدوين، وهو أحد شروط التطور، وحدثت ثورة الاتصال الثانية بعد أن اكتشف غوتنبرغ المطبعة منتصف القرن الخامس عشر، و أدت هذه الثورة إلى انتقال المجتمع من الاتصال الشفوي إلى الاتصال المكتوب، واعتبر ماكلوهان أن ثورة الاتصال الثالثة ارتبطت باكتشاف الحاسوب في الستينات والتي نقلت المجتمع إلى مرحلة الاتصال التفاعلي، أما اكتشاف الإذاعة في العشرينات من القرن العشرين و التلفزيون في الخمسينات من القرن نفسه، فهي امتداد لسمع الإنسان و بصره فحسب على الرغم من أنها نقلت المجتمع من مرحلة الثقافة المكتوبة على مرحلة الثقافة المسموعة المكتوبة، واعتبر ماكلوهان أن الحضارة تأثرت سلبا بالثقافة المسموعة والمرئية، ويعتبر ماكلوهان أن محتوى الوسائل شيء عرضي فالأهم هو الوسيلة في حد ذاتها، والتي تفرض على المجتمع نمطا خاصا من التفكير و الاتصال أي الرسالة هي الوسيلة.

أما عزي فيرى أن الرسالة أساس عملية الاتصال على رغم أن الوسيلة تؤثر في طبيعة الرسالة شكلا ومضمونا فالرسالة تمثل المرجع في ضبط العلاقة بين الثقافة و تكنولوجيا الاتصال والإعلام، فالثقافة مرجعية ثابتة في التاريخ وتتجدد بالفعل والممارسة، أما الوسيلة فقد تولدت في فضاء الثقافة وسعت إلى التعبير عن بعض مظاهر هذه الأخيرة، وإذا كانت هذه التكنولوجيات قد أنتجت الثقافة الجماهيرية فإن الثقافة لم تصبح الثقافة في حد ذاتها.

2- المنطلقات الفكرية لكلا النظريتين:

انطلقت نظرية الحتمية التكنولوجية (ماكلوهان) من أفكار الفلاسفة الغربيين كآدم سميث وجون سيتوارث ميل ونييتشه لأنها تركز على القوة الاقتصادية والصناعية التي عرفتها أوروبا في عصر النهضة الصناعية في القرن الثامن عشر إذ يعزى كل تغيير اجتماعي إلى القوة المادية وسطوة الآلة

قدّم هذه النظرية مارشال ماكلوهان Marshal Macluhan في ستينات القرن الماضي، وهي عبارة عن تصوّرات نظرية لتطوّر وسائل الاتّصال وتأثيراتها على المجتمعات الحديثة، إذ يرى أن تطوّر المجتمعات المعاصرة مرده إلى تطوّر تكنولوجيا الاتّصال، وعرفت هذه النظرية رواجاً منقطع النظير منذ نشر أفكار ماكلوهان، وأصبحت منطلقاً لكثير من الأبحاث في الإعلام والاتّصال في جميع أنحاء العالم.

بدأ العلماء و الباحثون في مجال الاتّصال الاهتمام بكتابات ماكلوهان في ثمانينات القرن العشرين لأنّه من أوائل كتّاب الحداثة الذين يرون أنّ المجتمع أصبح مجتمع معلومات تتولى قيادته أجهزة الحاسوب والالكترونيات، هذه التكنولوجيات أحدثت ثورة في شتى مناحي الحياة بما فيها العمل والاقتصاد والسياسة والثقافة والفنّ، وكذا أفكار ماكلوهان المستحدثة و الجريئة إذ يرى أنّ كل تغيير حاصل في المجتمعات الإنسانية مرده إلى قوّة الوسيلة التكنولوجية والاتّصالية،

وقد عرض ماكلوهان أفكار نظريته أول مرة سنة 1962 في كتابه مجرة غوتبرغ. وتعتبر نظرية الحتمية التكنولوجية Technological Déterminisme Théorie من النظريات المادية التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور وتفكير وسلوك الأفراد وعلى التطور التاريخي للمجتمعات، ويرى أن مضمون وسائل الإعلام لا ينظر إليه مستقلا عن تكنولوجيا وسائل الإعلام نفسها. فطبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان تشكل الأفراد و المجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال، لذلك يفترض في نظريته أن تكنولوجيا الاتصال تكبل حرية الإنسان الذي يصبح تابعا لها .

أما نظرية الحتمية القيمية(عزي عبد الرحمان) فقد انطلقت وارتكزت على القران الكريم والسنة النبوية واجتهادات المفكرين والعلماء المسلمين كالفارابي وابن رشد وابن خلدون ومالك بن نبي والفضيل الورثلاني. وترتكز هذه النظرية على القيم لان البعد عن القيم التي ارتضاها الله تعالى سبب لشقاء المجتمعات الإنسانية خاصة وان الإعلام ومضامينه واليات ممارسته بعيد كل البعد عن سنن الهداية والقيم. وإذا كان مفهوم " القيم " من المفاهيم التي تطرقت إليها الفلاسفة القديمة في الفكر الإنساني إذ حضيت بالاهتمام منذ زمن بعيد في عهد الفكر اليوناني من خلال كتابات بعض الفلاسفة مثل أفلاطون حتى وإن لم يسموها بهذا الاسم إلا أن كثيرا من المصطلحات التي كانوا يستعملونها تشير إلى القيمة كالخير والحق والجمال والعدل، لكن مع ظهور الثورة الصناعية وتطور المجتمعات الإنسانية من الناحية المادية ثم إغفال القيمة من كل نشاطات الكائن البشري لا سيما في المجتمعات الغربية، ومع التطور الهائل لتكنولوجيا الاتصال والإعلام ثم إقصاء القيمة من محتويات هذه التقنيات، اعتقادا منهم أن القيم لا علاقة بالجانب المادي أو أنها مثبتة و معرقة للنشاط الاتصالي و الإعلامي.

لكن في منظورها نحن كمسلمين نرى أن القيمة هي الأساس والموجه والغايب والمعيار لكل نشاط إنساني فإن كان السلوك أو الفعل موافقا للقيمة كان محمودا وإيجابيا وإذا كان مجانيا أو مخالفا للقيمة كان سالبا وبعيدا عن الحق. قال تعالى "اقرأ بسم ربك الذي خلق" (2) فالقيمة سبقت فعل الإنسان "في البدء كانت الكلمة، وكلمة اقرأ في الآية أتبعنا باسم ربك، أي تكون القراءة في سياق تعاليم إلهية و ليست قراءة من دون مرجعية (3).

وهذا هو المسعى الذي قدمه الأستاذ عزي عبد الرحمن عن أهمية دراسة القيم و التي عبر فيها في نظريته الحتمية القيمة التي يدعو من خلالها إلى أهمية القيمة وقدرتها على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية والأزمات المجتمعية، وفي الواقع أن النظرية القيمة جديدة بالاهتمام لأنها تجعل القيم صغير مستقلا، وليس متغيرا تابعا، وبالتالي وهي توضع في مصاف تنظير المفكرين الكبار، أمثال ماكس فيبر (Maxe vibre) الذي حاول شرح تطور الرأسمالية الغربية انطلاقا من الدور الذي تلعبه القيم الدينية البروتستانتية، كما كان مع بداية القرن الماضي قد انشغل بأثر القيم في توجيه البحث العلمي كما ابتكر مصطلح اللياقة القيمية وأشار إلى قيمنا تحدد

موضوعات البحث التي نبحث فيها، وفي نفس الاتجاه كان Tacots Parsons قد أشار في ورقته إلى الجذور الأساسية الدينية للقيم تحت عنوان Religions Organisation in the United (4) .

رغم أن المدارس الاجتماعية الغربية تزعم أن المجتمع هو الذي ينتج القيم.

3- المتغير الرئيس في كلا النظريتين:

1- الرسالة هي الوسيلة: (ماكلوهان)

يعني ماكلوهان بفكرة الوسيلة هي الرسالة إلى جانب ما ذكرنا أن مضمون أية وسيلة هو دائما وسيلة أخرى فإذا نظرنا إلى الكتابة نجد أن مضمونها هو الكلام والكلمة المكتوبة هي مضمون المطبوع والمطبوع هو مضمون التلغراف ومضمون الكلام هو عملية التفكير التي تعتبر غير لفظية، وكل تكنولوجيا جديدة تخلق ظروفًا جديدة تحول ما يسبقها دائما إلى شكل فني متقدم. والوسيلة هي الرسالة تعني أيضا أن لكل وسيلة جمهورا من الناس الذين يفوق حُبهم لهذه الوسيلة اهتمامهم بمضمونها وبمعنى آخر يعتبر التلفزيون - كوسيلة - محورا لاهتمام كبير (5).

-افتراضات النظرية: يقدم نموذج ماكلوهان تصورات نظرية وبعض الافتراضات الأساسية

عن التأثير الكمي لوسائل الإعلام والاتصال وثقافته في المجتمع .

1- الافتراض الأول: أن الناس يتكيفون مع بيئتهم في كل عصر من خلال توازن ونسبة محددة لاستخدام الحواس وصلتها بالوسيلة الاتصالية الرئيسية التي يستخدمونها، والتي ينتج عنها نسبة استخدام لحاسة معينة ذات صلة بتنوع الوسيلة المستخدمة. ويعتقد ماكلوهان بأن ذلك صحيح لأن كل وسيلة اتصالية إنما هي امتداد للواقع الإنساني، ومن ثم فإن وسائل الاتصال سوف تبالغ في استخدام هذه الحاسة المعينة أو تلك. ومهما كانت نوعية الوسائل السائدة فإنها ستؤثر على الطريقة التي يرى بها الناس العالم، فقبل اختراع الصحافة المطبوعة كان الناس القبليون أناسا اتصاليين ذوي توجه سمعي. فقد كانوا قريبين من بعضهم عاطفيا وشخصيا، وقد عزز وشجع استخدام الألف بإعادة تصور البيئة بطريقة مكانية حيزية، وخلفت تكنولوجيا غوتنبرغ تفجيرًا في المجتمع بفضل وتفريق الفرد عن الفرد الآخر، أما العصر الإلكتروني فقد كرس ورد العالم مرة أخرى إلى كونه قرية عالمية، حيث تم اختراع أجهزة الاتصالات التي تصل بين أطراف العالم وبشره .

2- الافتراض الثاني: قوة التأثير عند ماكلوهان هو الوسيلة ذاتها بمعزل عما تحمله من مضمون، وهذا ما اصطلح عليه الرسالة هي الوسيلة، ويرى أن مضمون الاتصال غير ذي علاقة بالتأثير فالذي يجعل هناك فرقا في حياة الناس إنما هي الوسائل السائدة في عصر ما وليس مضمونها، ويرى مارشال ماكلوهان Marshal Macluhan أن وسيلة الاتصال هي بذاتها الرسالة التي تعتقد بأنه بغض النظر عن محتوى البرامج فإن الناس لن يتوقفوا عن

مشاهدة التلفاز، وأن وسائل الإعلام الالكترونية ستغير جميع أوجه حياة البشر والحضارة، وذلك ليس بسبب مضمونها، ولكن بسبب طبيعتها، فوسائل الإعلام بالتالي أصبحت مجرد أدوات غامضة ذات قوة تستطيع تغيير الناس وحياتهم، فعلى سبيل المثال شهدت مدن كثيرة تغييرا ملاحظا في عادات الطعام والنوم والاختلاط الاجتماعي بسبب التلفاز.

ب- الرسالة هي القيمة (عزي) :

إذا كانت مضامين تكنولوجيا الاتصال ووسائل الإعلام المعاصرة تصدر عن مالكي هذه التقنيات و المروجين لأيديولوجياتهم و ثقافتهم المادية فإن الرسالة الإعلامية في النظرية القيمة و مضمونها لابد أن تخضع لمصدر هذه القيم وهو الله سبحانه و تعالى من خلال شريعة الإسلام التي حددت المنهج القويم في الإعلام مرجعية ممارسة واستخداما . وهو منهج لا عوج فيه وامتداد في الكون والحياة كلها. (فليس ثمة شك في أن الإسلام دينا يحمل معه منذ ظهوره نظاما للقيم خاصا به، فالقرآن الكريم هو كتاب أخلاق قبل كل شيء هذا فضلا عن كونه محور ما نسميه بالموروث الإسلامي الخاص) (6)

فالرسالة أو المضمون في منظور النظرية لا بد أن تكون لها قيمة سامية قال تعالى « وقولوا للناس حسنا». من هذا المنطلق لابد أن تكيف الرسالة الإعلامية وفق البعد القيمي كمرجعية، ولكي يكون الأمر أكثر جلاء وأشد وضوحا نذكر قول كرم شلبي: هل تبيح لنا شريعة الله أن نسترق السمع أو نتجسس أو نتلصص للحصول على خبر والتفرد به قبل الآخرين، وهل نسعى به للسبق الصحفي؟ وهل يبيح لنا الإسلام أن ننشر أخبار الجنس والأسرار الخاصة والفضائح؟

هذا هو واقع الحال في الرسائل الإعلامية عبر الفضائيات والانترنت وألعاب الفيديو فالكثير منها يدعو إلى العنف والرذيلة والجنس والفسق وهذا يتنافى مع قيم الإسلام والفضيلة السليمة للجنس البشري، لاسيما إذا علمنا أن رسالة الإسلام من خصائصها الواقعية وقيمها ليست مثالية بعيدة عن حياة غريزية تدعو إلى الجانب الترابي والمادي في الإنسان. ولكنها شريعة جاءت بالرسالة تحل مشكلات الناس وتحقق لهم الخير والحق والعدل، لكل البشر لأنها، رسالة عالمية تدعو إلى الفضيلة والأخلاق السامية التي يحبها كل بشر سوي قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» (7). وينبغي كذلك أن تتماشى الرسالة وتتكيف حسب ظروف المجتمع ومشكلاته في مختلف الأمكنة والأزمنة دون أن يؤثر ذلك في جوهرها وغايتها فالعدل مثلا يتحقق في المجتمع في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية داخل الأسرة وفي المنظمات و المؤسسات الهيئات، والمهم في ذلك كله أن تكون الرسالة قادرة على حمل الناس على التحول الأفضل والأسمى والأرقى فكريا وأخلاقيا وسلوكيا وهذا هو المطلوب.

4- ماذا قدمت النظريتين للثقافة الإنسانية:

إن قوة التأثير عند ماكلوهان هو الوسيلة ذاتها بمعزل عما تحمله من مضمون، وهذا ما اصطلح عليه الرسالة هي الوسيلة، ويرى أن مضمون الاتصال غير ذي علاقة بالتأثير فالذي يجعل هناك فرقا في حياة الناس إنما هي الوسائل السائدة في عصر ما وليس مضمونها. تزداد قوة التأثير في طريقة تعامل الناس ونظرتهم للوسائل لذلك سيطرت الأهواء والغرائز على كل مضامين الوسائل تقريبا.

أما عزى عبد الرحمن أن فيرى التأثير لا يتم من دون مرجعية تربط محتويات هذه التكنولوجيات بالقيم، فالتأثير يكون إيجابيا إذا كانت المحتويات وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا، وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كنت المحتويات لا تتقيد بأي قيمة أو تتناقض مع القيمة وكلما كان الابتعاد عن القيمة أكبر كان التأثير السلبي أكثر.

ومن التأثيرات الايجابية لاستخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال تعزيز القيم ذلك أن علماء الإعلام والاتصال يرون أن هذه الأخيرة لا تغير آراء الناس وقيمهم ومواقفهم واتجاهاتهم بقدر ما تعمل على تدعيم وتثبيت وتعزيز هذه الأخيرة، ذلك أن هذه التكنولوجيات ليست وحدها من يؤثر في حياة الأفكار وتفكيرهم وسلوكهم بل هناك عاملا آخر أكبر تأثيرا وهو العامل الاجتماعي، كما تعمل التكنولوجيات المعاصرة على التنشئة الاجتماعية من أجل اكتساب قيم المجتمع وثقافته من خلال المحتويات المتنوعة اجتماعية، دينية، سياسية، تربوية، وتعمل هذه التكنولوجيات أيضا على تحقيق الانسجام وتعزيز الترابط الاجتماعي من خلال الإحساس بالانتماء إلى المجتمع الذي تربطه صفات مشتركة كالقيم والثقافة والتاريخ واللغة والتجربة والحيز الجغرافي فيكون دور هذه التكنولوجيات لم الشمل فأفراد المجتمع لا يكتفون بما يقرؤونه ويشاهدونه أو يستخدمونه بل يتحدثون إلى بعضهم عن تجاربهم الإعلامية، وهذا ما يعزز العلاقة الاجتماعية، ومن إيجابيات أيضا توسيع دائرة الثقافة والمعرفة في أوساط كبيرة من أفراد المجتمع (8)

وتجعل التكنولوجيات الإعلامية الأفراد يعون ما يحدث بالعالم الخارجي أي توسيع المحيط وكذا معاينة عوالم متعددة تحمل الإنسان عبر المكان والزمان ويتنفس من خلالها ويبتعد ولو إلى حين عن هموم الواقع ويجد التعويض في هذه المنظومة الرمزية، كما تعد التكنولوجيات المعاصرة مجالا واسعا للإشباع والترفيه من خلال المضامين التفاعلية والألعاب، والمناقشات ما يجعل الفرد شديد الارتباط بها لأنها تحقق له الإشباع المعرفي والعاطفي والترفيهي .

هذه بعض الإيجابيات أو الآثار الإيجابية لتكنولوجيات الاتصال والإعلام ويتحدد طبعاً إن كان للإنسان أو الفرد المستخدم لها رغبة وهدفا في تحقيقها.

أما الآثار السلبية: تتمثل في إقصاء القيم من المضامين والبرامج الإعلامية وإبعادها كعامل مؤثر في الحياة والتفكير والسلوك بحيث يصبح عبدا لهذه التكنولوجيات وليست له مناعة وشخصية في رفض الرسائل والصور التي تتماشى مع عامل القيمة كأفكار الإجرام والجنس والرذيلة، وكذا جمهرة الثقافة أو التبسيط والتشويه فتكنولوجيات الاتصال والعاملين ورائها تعمل

على كسب الجمهور الواسع على حساب الثقافة الأصيلة والارتقاء الثقافي والسلوكي والإنساني ولذلك سميت بالثقافة الجماهيرية كالمسلسلات والأفلام والإعلان فهي تحاول أن تستهوي أكبر جمهور ممكن إلى ثقافة وهمية .

وتعمل تكنولوجيات الاتصال أيضا على صرف الناس عن عاداتهم وتقاليدهم ونمط معيشتهم وإبعادهم عن ثقافتهم شيئا فشيئا وهذه من أهم أهداف العولمة الإعلامية أو الاستعمار الثقافي في ثوب جديد كما تعمل هذه التكنولوجيات على إضعاف الاتصال الاجتماعي أو تفكيك العلاقات الاجتماعية على اعتبار أن الزمن الذي يقضيه الفرد مع هذه التكنولوجيات أكبر مقارنة بعائلته وأقرباءه وأقرانه وتفاعله مع أفراد المجتمع، وهذا يؤدي إلى أضعاف دور قادة الرأي أو العلماء الباحثين ورجال الإصلاح والأدب والثقافة، ومن المخاطر أيضا إشاعة الاستهلاك والمعيارية أو قولبة الثقافة بحيث تصبح هذه الأخيرة مثل السلع والبضائع إذا كانت تحقق منفعة مادية تؤخذ والإلا ترد وهذا يضعف الثقافات وتقلل من تنوعها وتمايزها .

أهم الانتقادات الموجهة للنظريتين:

من أكبر الانتقادات الموجهة لنظرية Macluhan تفسيره لأي تطور حاصل في المجتمعات الإنسانية إلى قوة الوسيلة التكنولوجية والتي يراها أصل أي تطور حضاري، خطأ كبير لان تفسير الظاهرة انطلاقا من متغير واحد لا يعطي رؤيا شاملة عن الظاهرة بل يفسر جزءا منها فقط لذلك نقول أن التطور والتغير الحضاري تتحكم فيه عوامل كثيرة إلى جانب الوسيلة كتقافة المجتمع وقيمه وعاداته وطريق استخدام أفراد المجتمع للوسيلة أو التكنولوجيات وكذا رؤية الأفراد للمستقبل. أما الانتقاد الآخر هو قول Macluhan أن استخدام الوسيلة يجب أن يكون منعزلا عن القيمة لكي تحقق الوسيلة مرادها ومبتغاها لان القيم حسب نظره تعرقل أداء الوسيلة وهذه فكرة لا نقبلها لان القيم عندنا هي من يوجه السلوك وان القيم الصحيحة هي من يعطي القوة للوسيلة، لكن من ناحية أخرى نوافق Macluhan في قوله أن استخدامات الناس للوسيلة هي من نحكم عليها بالسوء أو الحسن لان الوسيلة يتحكم فيها الفرد وليس العكس. أما قول Macluhan أن الرسالة هي الوسيلة والتي يقصد بها أن الأفراد تستقطبهم الوسيلة لذاتها بعيدا عن المضامين التي ترد فيها فليس صحيحا لان الأفراد تستهويهم قوة المبتكرات الجديدة كوسيلة وما تحتويه هذه الأخيرة لأنه يحقق من جراء استخدامها اشباعا لشخصية متنوعة فلا يمكن بأي حال فصل الرسالة عن الوسيلة.

أما الانتقادات الموجهة لنظرية الحتمية القيمية فهي أن النظرية ليست عالمية ولا تصلح لجميع المجتمعات على حسب البعض من الباحثين لكن الحقيقة إن هؤلاء لم يفهموا أبعاد النظرية ولم يقرؤوا أفكارها ثم إن الحكم عليها لا يمكن إلا إذا جسدنا أفكارها في مجال الإعلام حيثها فقط يمكن الحكم عليها.

الخاتمة :

إن نظرية الحتمية التكنولوجية كانت لا تزال المنطلق لجميع المشتغلين في علوم الإعلام والاتصال في الشرق والغرب وان أفكار ماكلوهان لازالت تتداول على أوسع نطاق في الحقول الأكاديمية لكن تبقى أفكارها محل نظر ونقد لان علوم الإعلام والاتصال تطور بشكل كبير وأضحت أفكار الحتمية التكنولوجية قديمة لا تساير التطورات السريعة.

إن نظرية عزي هي اجتهاد فكري إعلامي لا يستهان به لكن لا يمكن فهم النظرية إلا بالقراءة المتأنية لكتب عزي ونصير بوعلي والسعيد بومعيزة وآخرون فلا يمكن فهمها لمجرد قراءة جزئية منها بل يستحسن الاطلاع على كل ماكتب حول النظرية. ثم إن كثير من المفاهيم الواردة فيها تبدو صعبة للوهلة الأولى لكن مجرد قراءة معانيها تصبح واضحة. ثم إن النظرية القيمة لم تأت لتقصي النظريات الأخرى بل جاءت لتقدم نظرة متبصرة للمسألة الإعلامية وتفسيرها وفق انتماء الأمة الحضاري لان الواقع الإعلامي العربي يبين أن القائمين على الأجهزة الإعلامية يمارسون الإعلام أفكارا وإنتاجا وصورة اقتداء بالإعلام الغربي ولا يعيرون أي اعتبار للقيمة القيمة الكبرى بل وحتى المؤسسات الأكاديمية - الجامعات والكليات والمعاهد التي تدرس الإعلام والاتصال من منظور الفكر الإعلامي الغربي ويسحبون تلك الأفكار والنظريات بعيدا عن البيئة الاجتماعية الحضارية وبعيدا عن القيمة م جني بالنكبات على قيم المجتمع الجزائري والعربي . إن نظرية عزي لم تهمل أركان العملية الاتصالية المعروفة بل أضافت لها النظام الاجتماعي والبعد الحضاري للمجتمع لان القيم تعمل كنظام موحد في المجتمع يخضع له جميع الأفراد ويرتب هذا النظام حسب الأولويات والبعد الحضاري أي النظرة إلى الله والكون والأشياء إضافة إلى المرسل والمتلقي والرسالة والوسيلة كلها لا بد أن تكون ناقلة للقيم التي هي روح أي عنصر من عناصر العملية الاتصالية.

إن نظرية الحتمية القيمة هي اجتهاد فكري إعلامي متميز من قبل البروفسور عزي فهو لم يأخذ النظريات الإعلامية بالتسليم المطلق أو الرفض التام بل اعترف بقوة وتطور هذه الأخيرة لاسيما في الأدوات المنهجية الدقيقة لكنها لا تناسب إلا البيئة الاجتماعية والاتصالية التي ولدت فيها وهي البيئة الغربية لذا فهو يرى أن هذه الأدوات لا بد أن يتم تعديلها وتكييفها وفق البيئة التي نمارس فيها نشاطاتنا الإعلامية مراعين في ذلك التوجه الحضاري لامتنا العربية والإسلامية. ثم إن أدوات جمع البيانات كالاستبيان والمقابلة والتي تستخدم في دراسات الجمهور تبقى قاصرة وغير دقيقة وتحتاج إلى أدوات أكثر دقة وتطورا لذا لا بد من وضع مقاييس خاصة لرصد القيم في المجتمع الجزائري ثم وضع سلم خاص بنظرية الحتمية القيمة وهذا ما تم فعلا وسمي بمقياس (ع س ن ' نسبة إلى عزي عبد الرحمان - سعيد بومعيزة - نصير بوعلي .

• الهوامش و المراجع :

- 1- فضيل دليو : التكنولوجيا الجديدة للإعلام و الاتصال (الأردن ، دار الثقافة ، ط 1 ، 2010).
- 2- حسان موهوبي : الإعلام و المرجعية القيمية : الجزائر جامعة الأمير عبد القادر ، أعمال ندوة وطنية حول نظرية الحتمية القيمية ، 20 أفريل 2009.
- 3- السعيد بومعيزة : لماذا نهتم بدراسة القيم : الجزائر ، جامعة الأمير عبد القادر ، أعمال ندوة وطنية حول نظرية الحتمية القيمية ، 20 أفريل 2009 .
- 4 فضيل دليو: مرجع سابق: التكنولوجيا الجديدة للإعلام و الاتصال.
- 5-مي العبد الله : نظريات الاتصال (بيروت ، دار النهضة العربية ، ط 2 ، 2010).
- 6- محمد عبد الرزاق الدلّيمي: الإعلام التربوي (الأردن ، دار المسيرة ، ط 1 ، 2011) .
- 7-حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعي ، القاهرة ، عالم الكتب ، ط4 ، 1977
- 8- عزي عبد الرحمن : دراسات في نظرية الاتصال ، نحو فكر إعلامي متميز ، مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة كتب المستقبل العربي (28) ط 1 ، 2003.